

أنكل أوباما ولسانه المشقوق (2.1) .. منير العكش



الثلاثاء 3 مايو 2011 12:05 م

03/05/2011

منير العكش

يطلق الهنود الحمر على من يخونهم من بني جلدتهم مع المستعمرين البيض اسم "التفاحة"، لأنه لم يبق له من هنديته إلا البشرة الحمراء، أما من الداخل فقد أصبح كالمستعمر الأبيض، أبيض السياسة والأخلاق، وأبيض النظرة إلى معتقدات أهله وثقافتهم وذوقهم وسلوكهم وتراثهم الروحي[] كذلك فإنهم يشبهون "مكتب الشؤون الهندية" الذي أنشأه لهم المستعمرون البيض وجعلوه بمثابة "السلطة الوطنية" للهنود الحمر، بالنمط الأبيض[] ذلك لأن هذه الآفة من أخطر ما يواجهه الأمريكيون في حياتهم اليومية لأنها تنخر قواعد بيوتهم وتعطبها من الداخل وربما تؤدي بها إلى الانهيار[] صحيح أن المستعمرين البيض استولوا على 97% من أراضي الهنود ووقعوا معهم 371 معاهدة استولوا بمقتضاها على ما يعادل ملياري هكتار من الأرض (محاضر الكونغرس 1971، الدورة الأولى)، ثم لم يحترموا واحدة منها، إلا أن هذه الـ 3% الباقية من أراضي الهنود ما زالت إلى الآن مطمعا وعرضا للنهب والاستيطان[] وعلى الرغم من أنها قطع من الأراضي ممزقة مخدقة معزولة مطوقة متباعدة كأنها ضفة غريبة عملاقة، فإن مجموع مساحتها أكبر من مساحة الجزيرة البريطانية[] فجأة اكتشف الغزاة أن هذه الأراضي البور التي حشر فيها الهنود بالقوة والإرهاب ليقضوا فيها الحصى والتراب، والتي ظنت الحكومة الاتحادية أنها ستصبح مقابر جماعية تبتلع ما تبقى من هؤلاء الأشقياء[] اكتشفوا أنها تضم كنوزا يسيل لها لعاب الشركات الكبرى على اختلافها[] لقد تبين لهم أن في هذه الأراضي التي لا تعيش فيها السحالي والضباب ثلثي احتياطي "الولايات المتحدة" من اليورانيوم، وربع الفحم الكبريتي، وكُمس الغاز والنفط، ومخزوناً هائلاً من الذهب والنحاس والماس وبوكسيت الألمنيوم، وغير ذلك من الكنوز التي أعطت الغزاة مبرراً إضافياً لزرع "النمل الأبيض" في قواعد البيت الهندي وتأسيس أدهى نظام استعمار داخلي على وجه الأرض تحت مظلة "السلطة الوطنية" للهنود الحمر[]

في ظل "مكتب الشؤون الهندية"، منذ إنشائه عام 1824 (باسم مختلف في السنوات الأولى) حتى اليوم، سطت الشركات العملاقة على معظم ما في أراضي الهنود من ثروات رغم ما يُسمَع المسؤولون عنه من شعارات الصمود وعدم التفريط والغيرة المحترقة على ماضي الهنود وحاضرهم[]

بفضل هذا "النمل الأبيض" الذي زرعه الغزاة في قواعد البيت الهندي، تعتبر نسبة فقر التغذية بين الهنود أعلى من المعدل الأمريكي بـ 12 ضعفاً، ونسبة تعاطي الكحول أعلى بتسع مرات، ونسبة الموت عامة أعلى بخمس مرات[] الهنود اليوم أكثر جماعات هذه الإمبراطورية المتخمة عرضة للأمراض والأوبئة التي اختفت تماماً، ولديهم أعلى نسبة انتحار وإدمان على المخدرات[] بفضل مكتب الشؤون الهندية تم تعقير الكثير من نساء الهنود، وتم خطف معظم أطفالهم في سن الرابعة وإلحاقهم بمدارس داخلية مات 50% منهم قبل أن يتخرجوا[] أما من كتبت لهم الحياة فقد سلبوا من أسمائهم ولغاتهم وتقاليدهم وهنديتهم وتحولوا إلى ألغام داخل المجتمع الهندي، أو مسؤولين في مكتب الشؤون الهندية[]

ومعلوم أن الحكومة الاتحادية هي التي تختار مسؤولي هذا المكتب وتمنحهم سلطات وهمية وأبهاث وألقاباً خاوية لقاء أن يوقعوا من حين لآخر على ورقة مكتوبة في واشنطن أو على عقد مصاغ في هذه الشركة أو تلك[] كل سلطة هؤلاء "الشخصيات" تنحصر في أن يوقعوا باسم الهنود الحمر على ما يشاء الغزاة، فهم يوقعون على تعديلات تنقض هذه المعاهدة أو تلك، أو تعطل شرعيتها وتبخر ما تبقى من السيادة الإسمية للهنود على أراضيهم[] وهم يوقعون "باسم الشعوب الهندية" على عقود يتنازلون بمقتضاها عن ثروات بلادهم مقابل بنس واحد عن كل دولار منهوب من كنوز أراضيهم[]

إنهم يوقعون على مهمات إقناع الهنود بعدم المقاومة ونبذ العنف والعيش على عسل التسويق، ويوقعون على تفريغ مأساتهم من بعدها الحضاري والثقافي والإنساني والأخلاقي وعلى كل ما أحال قضية اغتصاب قارة كاملة وإبادة أكثر من 112 مليون إنسان في أبشع محرقة في التاريخ البشري إلى سوء تفاهم عابر[] وهذا ما دعا زسل مينز أحد أبرز قادة الحركة الهندية المعاصرة إلى القول في رسالة غاضبة موجهة إلى كل الشعوب الهندية "إن انقاذ الهنود من فقرهم وشقائهم لن يتم إلا بعد القضاء على مكتب الشؤون الهندية".

النمل الأبيض

من يقوم بدور النمل الأبيض لدى الأمريكيين السود يشبهونه بملوى تسمى "أوريو" وهي طبقتان من "البسكويت" الأسود وبينهما مادة سكرية بيضاء، لكن الاسم الشائع للأسود المتأبيض هو "أنكل توم"، وقد جاء الاصطلاح من رواية "كابين العم توم" (1852) للروائية الأمريكية هيريت بيشر ستون[] "العم توم" في الرواية أسود متفوق أخلاقياً على سيده الأبيض، لكنه استعمل فيما بعد اصطلاحاً مهيناً لوصف من يخون بني جنسه من السود بالدل والخون والمبالغة في التملق للسيد الأبيض[] ومن ظاهرة هذا الأسود المتأبيض استعار علم النفس ما يعرف بوباء العم توم، ومن أعراض هذا البوباء المبالغة في النفاق والخون والتملق كما يعبر عن ذلك القول المأثور في كيلة ودمنة "كلني يا ملوي".

لطالما وُصفت منظمات الحقوق المدنية السوداء أوباما بملوى "الأوريو" تارة وبالعَم توم تارة أخرى، كما أطلقتها من قبل على كثير من الشخصيات السوداء البارزة التي ما زالت تعمل لصالح المؤسسة الأمريكية الحاكمة بروح العبد المطيع[]

ولعل أقرب مثيلين على هذه البوباء كما يراه الأمريكيون السود المعاصرون هما وزير الخارجية السابق كولن باول الذي اتخذته "ذي فيليج فويس" (صوت القرية) أنموذجاً

لواء العلم توم، وصورته وهو يقود حصان طروادة إلى هارلم قلعة السود في نيويورك (15 أغسطس/آب 2000)، والمثل الثاني على هذا اللواء يتمثل في تفاني وزيرة الخارجية الأميركية السابقة كوندوليزا رايس في خدمة سيدها الأبيض[] إنها على مدى ثماني سنوات من عملها مستشارة للأمن القومي ثم وزيرة للخارجية، ورغم معاناتها من العنصرية وهي طفلة في برمنغهام (ألاباما)، لم تكتف بأن أدارت ظهرها لبني جنسها في الولايات المتحدة وأمريقيا، وإنما كانت من ألد أعداء حركة الحقوق المدنية السوداء[]

لقد ورثت عن أبيها القس الفذ وباء العلم توم حيث كان يصف المناضلين السود من أجل الحقوق المدنية بقيادة مارتن لوثر كينغ بأنهم "شرذمة نيغرو (واللفظ يستخدم تحقيراً) ضالين جهلة". أما هي فقد وصفت نضالهم وتضحياتهم وشهداءهم بأنه "عبث لا معنى له"، وهنا تعلق مجلة "بلاك كومنتاتور" (1 ديسمبر/كانون الأول 2005) بأن "رايس لا تختلف عن أبيها[] إنها لن تتورع عن أن تبصق على قبر مارتن لوثر كينغ وعلى تلك النفوس الشجاعة التي بذلت حياتها من أجل أن تكون رايس حيث هي الآن". لكن كوندي التي فتنها "أنكل توم" لبنان ذات يوم ليست باستثناء في المؤسسة الحاكمة الأميركية، فمعظم السود في الحزب الجمهوري متهمون -كما يقول عضو الكونغرس تيموثي جونسون- بأنهم يكرهون بني جنسهم، ويطلق عليهم اسم "العلم توم" (6 أبريل/نيسان 2010).

أبرز من أطلق على باراك أوباما اسم "العلم توم" هو رالف نادر أشهر محامي المستهلكين في الولايات المتحدة حيث اتهمه بأنه لا يختلف عن سلفه جورج بوش في خدمة الشركات الكبرى، شركات الرأسمال والنفط والسلاح وتجارة الموت[] وبالطبع لم يكن رالف نادر مخطئاً، فكل وعود أوباما للفقراء وأبناء الطبقة الوسطى تبخرت ساعة دخوله البيت الأبيض، على غرار كل من سبقه من أصحاب اللسان المشقوق[]

تضليل وشقشة

كل الحملات الانتخابية التي شهدتها منذ أيام رونالد ريغان حتى باراك أوباما، سواء كانت للرئاسة أو لعضوية الكونغرس، كانت مباريات ضارية في التضليل وشقشة اللسان، لا فرق بين أبيض وأسود، وديمقراطي وجمهوري[] كلاهما يحيي كرفناً لا يديره مدارس التمثيل وشركات العلاقات العامة وتُنفق فيه ملايين الدولارات على مكياج الوجوه، ودراسة شكل البسمات والحركات والمصافحات، ومشاهد توزيع القبل الأبوية للأطفال أمام العدسات، وطبيعة الملابس التي يفضلها هذا الجمهور أو ذاك[] كلاهما يبيع أسهم حروبه المقبلة في مساومات مافيوية مع مديري شركات السلاح وتجارة الموت، وكلاهما يصطحب زوجته وأطفاله وكرابه ليوهم بأنه رب عائلة مخلص طيب القلب، وكلاهما لا تنكشف فضائح خيانتة لزوجته ولا يظهر أطفاله غير الشرعيين إلا بعد خسارته المعركة الانتخابية (يراجع كتاب شلّي روس "فضائح وفساد في السياسة الأميركية").

أما خطب هؤلاء المرشحين فتتغير لهجاتها ولكننتها وموضوعاتها وأساليبها وطريقة إقائنها وتعابير الوجه الملزمة لكل جملة فيها مع طبيعة الجمهور، ففي الأماكن الفقيرة يستعير المرشح لنفسه وجه الفادي المخلص، فيبيع الآمال والأحلام، ولا يمل من اختراع القصص الكاذبة عن أمه الفقيرة وأبيه "المعثر" وجارته المعوزة[] أما في مناطق "اليانكي" والزناير (البيض الأنجلوسكسون البروتستانت) فيتحدث عن الدور الرسالي للولايات المتحدة في العالم، وعن عظمة الشعب الأمريكي وتفوقه واستثنائته، وعن الحاضر المجيد الذي سيصبح أكثر مجداً وغنى وقوة[]

وحين يخطب المرشح أمام مناهضي الحرب فإنه يصطنع الحزن، وقد يستعين بما يشبه البصل لدر الدموع على الضحايا الذين يتفطر قلبه عطفاً مع أهلهم ومحبيهم[] هنا لا يعمل المرشح من الوعد بعدم زج "أطفالنا" في خطوط النار، وهي الأسطوانة التي أدارها كل الرؤساء الأمريكيين منذ حرب فيتنام[] كل الرؤساء علقوا هذه الكليشيات بما في ذلك "أنكل أوباما" الذي يخوض الآن حرباً في أفغانستان، وحرباً في باكستان، وحرباً (يبدو أن بترأوس سيوسع رحاها) في اليمن ودول الخليج والصومال وإيران وفلسطين المحتلة[]

لم يتغير شيء منذ فيتنام حتى أفغانستان، كلها كانت حروباً "نبيلة خيرية" أسقطت فيها أكثر من خمسين حكومة شرعية وغير شرعية، استبدادية وديمقراطية، ومُصفت بالقنابل أكثر من ثلاثين أمة، ودمرت حياة ملايين البشر في أميركا اللاتينية وأفريقيا والعالم الإسلامي[]

لم يرحل قط رئيس أميركي من الدنيا وليس على يديه دم شعب من الشعوب، ولم يعرف التاريخ الأمريكي قط يوماً واحداً فقط توقّف فيه القتل والتدمير، ولم يعرف فن الخطابة عبر تاريخه أبْلغ من رؤساء أميركا وهم يحاضرون في العفة إلا ربما رؤساء وزراء بريطانيا[]

كل هذه الاحتفالات الانتخابية التي ترتفع فيها الأعلام وأنواع عجيبه من الزينة والزخرف، وتتطاير فيها البالونات على اختلاف ألوانها، ويحشد لها في حفلة الترشيح النهائية آلاف المحازيين والمحازيات، هي مشاهد مصممة لتعمي عيون الناخبين والناخبات والمتأمركين والمتأمركات عن أن الديمقراطية في الولايات المتحدة تبيع جسدها للمال والقوة[]

وما أوباما ببذعة في خطابه ووعوده[] إنه لم يبدُ استثناءً إلا لأنه جاء بعد رئيس فكابجيّ جلف، أخرق المنطق، بذيء اللسان، كثير كل شيء بما في ذلك اللغة الإنجليزية[] أما من حيث اللون فإن أوباما ليس بأسود ولا بأبيض[] أمه "آن دهنام" أميركية بيضاء من كنساس إحدى قلاع العنصرين البيض والمقر الرئيسي للنازيين الجدد المعروفين باسم "الذم الأريانية". ثم إنه لا يكاد يعرف أباه الأسود "المسلم" الذي قتل في حادث سيارة عام 1982، فقد تفرق والداه عام 1963 عندما كان في الثانية من عمره فكفلته أمه[] ولما بلغ السادسة تزوجت من الإندونيسي "لولو سويتورو" فحملت ابنها وانتقلت إلى جاكرتا[]

شخصية أوباما

كل مدارك أوباما ووعيه الباطن وحساسيته للعالم من حوله تبلورت في كنف أمه، ثم في كنف جدته البيضاء حين عاد من جاكرتا ليعيش معها في هاواي، كما تشهد على ذلك سيرته الذاتية بعنوان "أحلام أبي". وأما طبقياً فالرجل من أصحاب الملايين[] صحيح أنه لا توجد معلومات واضحة عن ثروته، لكن من المعروف أن دخله في عام 2005 كان أكثر من مليوني دولار، وأن صلاته الوثيقة بغابة الرأسمال مكنته من أن يجمع 58 مليون دولار في الأشهر الستة الأولى من حملته الانتخابية[] هناك دائماً خلط مغشوش لأوراق هذه اللعبة الطبقيّة/العرقية التي تديرها مافيا المال والسلاح وتجارة الموت باسم الديمقراطية في أميركا[] وبالتأكيد فقد كان لرعونة بوش (الدين) الفضل الأكبر في نجاح أوباما وخسارة منافسه جون ماكين[] كانت هذه الرعونة تطارد العجز الدموي المخضرم وتنخر أعصابه، بل كانت الكابوس الذي سكن حملته الانتخابية[] كل الأكاذيب التي افترأها ماكين ليوهم الناخبين بأنه ليس بوشاً آخر يتحدث مع الله ولا يفتح فمه إلا للأكل والكذب وتناول المخدرات، لم تنفع[] وهذا ما عزز من أوهام الكثيرين الذين ظنوا أن انتخاب رئيس ديمقراطي لا أسود ولا أبيض سيضمد جراح أميركا في الداخل ويلمع صورتها في الخارج[] أففف! بعد الآن لن يكون هناك تشيني آخر ولا رمسفيلد جديد، وسيظهر مجلس الأمن القومي من مستشارة برّت النازيين في دعواها إلى "تغيير العقل العراقي كمقدمة لتغيير العقل العربي".

انتهت الجعجعة واللغة الفجة والقتل المسرحي[] لقد أسدلت الستارة على "الأخ الأكبر" واستعاد مسدس أميركا كاتم صوته مثلما استعادت السياسة الخارجية قفازها المخملي[] وهذا لعله التغيير الوحيد الذي جاء به العلم أوباما، فشركات السلاح صارت تعمل 25 ساعة في اليوم، وشركات المال التي لم يكفها ما سرقته من الفقراء والطبقة الوسطى تسرق الآن مال الدولة[] لقد حول إليها العلم أوباما أكبر كمية من الثروة في التاريخ الأمريكي[] أما الأهداف الإستراتيجية الكبرى التي رعتها كل الإدارات السابقة -الديمقراطية والجمهورية- فما زالت هي هي منذ بداية القرن الماضي على الأقل[]

كل ما في "كابين العلم أوباما" وتاريخه وتصرفاته وتصريحاته التي يضرب بعضها بعضاً، يؤكد أنه لا يختلف إسرائيلياً عن كابين "العلم بوش" وعن التزام الإدارات السابقة بالمفكرة الصهيونية[] فقبل أن يبدأ بنصب مصيدته للمغفلين المسلمين مستعيناً بمكاتب الشؤون الهندية في العالم العربي وبمراكز العلاقات العامة (مارتن إنديك أند كوا)، كشف أوباما في لقاء مع جيفري غولديربغ (أتلانتيك، 21 مايو/أيار 2008) عن عمق الفكرة الصهيونية والأخلاق اليهودية في تربيته وثقافته ومشاعره، وعن التزامه بهذه الفكرة التزاماً لا يختلف عن جورج بوش[]

ويروي أوباما أنه كان في جنوب أفريقيا حين اعتدت إسرائيل على لبنان عام 2006 فألقى خطاباً بتلك المناسبة جاء فيه "لا يخطرن ببال أحد أن أميركا ستقف موقفاً لطيف من موقف جورج بوش عندما يتعلق الأمر بأمن إسرائيل[] ولا يتوهمن أحد بأنه سيدج في ظل رئاستي أي موقف أقل صلابة بأمن إسرائيل". ("أمن إسرائيل" في اللغة الأوروبية الأميركية يعني أمن الاحتلال الإسرائيلي، وأمن الاستيطان، وأمن توفير المجال الحيوي لهذا الاحتلال والاستيطان في أي بقعة من العالم العربي). وفي رام الله يخاطب العلم أوباما مجموعة من الطلاب الفلسطينيين، تحت سمع وبصر كبير المهرجين الفلسطينيين فيقول (المصدر السابق) "اسمعوا جيداً[] إذا كنتم

تنتظرون من أميركا أن تبتعد عن إسرائيل فأنتم واهمون واهمون إن التزامنا والتزامي أنا شخصياً بأمن إسرائيل لا يقبل نقاشاً". ثم يكشف عن دور اليهود في حياته الشخصية والسياسية فيقول متباهياً إن "اليهود وراء نجاحي في شيكاغو" إن لهم دوراً مركزياً في هذا النجاح لهذا يتهمني السود بأنني أقرب إلى اليهود مني إلى السود". (لعل أطرف ما في هذا "التهود" قول إيلينا كاغن التي اختارها أوباما قاضية في المحكمة العليا بأنه "أول رئيس أميركي يهودي").

ثم يسرد بعض التفاصيل العاطفية عن الكتب والمؤلفين اليهود الذين صاغوا حساسيته الأولى مثل ليون أوريس وفيليب روث "لقد تعلمت فن الأخلاق من اليهود" إن فيليب روث صاغ حساسيتي (لروث علاقة غريبة مع الموساد كما يدل كتابه "عملية شيلوك").. وعندما أفكر بالفكرة الصهيونية إنما أفكر بمشاعري التي تكونت تجاه إسرائيل حين كنت في الصف السادس ودخلت معسكراً يشرف عليه يهودي أميركي أمضى وقتاً في إسرائيل (للسياحة؟).. تلك كانت أعرق ما في ذاكرتي عن إسرائيل التي امتزجت بعد ذلك بالإعجاب بالتجربة الصهيونية في المستوطنات الجماعية (الكيبوتس)".